" التفاعل بين المغاربة والسودانيين ثقافيا وفكريا في بداية العصر الحديث"

الاستاذ: أيمن عميمور
amimouraymen@yahoo.com
جامعة الجزائر 2 ابو القاسم سعد الله

تاريخ الارسال:2019-03-25 تاريخ القبول:2019-05-13 تاريخ النشر: 2019/05/25

الملخص:

إن العلاقات بين شعوب القارة الإفريقية الشمالية والجنوبية فيما وراء الصحراء، قديمة قدم التاريخ، فرغم وجود عقبة طبيعية كالصحراء الإفريقية الكبرى فقد كانت هناك تسربات لمؤثرات بشرية من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال، عبر مسالك تخترق الصحراء وإن كانت متفاوتة في الفعالية، فالصحراء الكبرى لم تكن في وقت من الأوقات حاجزا طبيعيا يعوق التواصل بين دول شمال القارة الإفريقية وجنوبها، فقد عرفت شعوب ضفتي الصحراء الكبرى، كيف تجعل هذا الحاجز الطبيعي مجالا للتواصل المتواتر بينها، وإن كانت هذه العلاقات في الماضي تقوم على التجارة فقط، فقد صارت بالتدريج تشمل جميع جوانب الحياة، واتسمت بالثبات والتطور عبر الأجيال، هذا الترابط الطبيعي أثر على مستقبل العلاقات بين سكان المنطقتين، التي شهدت تطورا ملحوظا مع بداية ق: 10هـ- 16م، وهذا ما يعكسه واقع المجتمعات السودانية، والممالك التي كانت منتشرة آنذاك في أقاليم السودان من ازدهار نوعي و الذي يمكن رده أساسا إلى انتشار الإسلام في المنطقة من جهة، ومن جهة أخرى إلى تأثير العناصر المغربية في المجالين الاقتصادي والثقافي الذي تبناه التجار والعلماء والفقهاء الذين استوطنوا في المنطقة.

الكلمات المفتاحية:

التفاعل بين المغاربة، السودانيين، افريقيا جنوب الصحراء، التفاعل الفكري والثقافي، التعليم، السودان الغربي . العصر الحديث

مقدمة:

انعكست الأوضاع السياسية للمغرب الأقصى على السودان الغربي وكان لها تأثير كبير في شتى المجالات، فبضعف الدولة الوطاسية، وقيام القبائل والزوايا في جنوب المغرب الأقصى بمبايعة السعديين للوقوف في وجه البرتغاليين بقيادة القائم بأمر الله، ثم ازدهار الدولة خاصة على عهد السلطان المنصور في نهاية ق:10هـ/16م، الذي تجنب الشمال (الأندلس) والخطر البرتغالي والشرق (المغرب الأوسط) والخطر التركي، ففتح له مجالا للتوسع من جهة الجنوب، وأرسل حملة في الفاتح من محرم999هـ/10 نوفمبر1590م، إلى السودان الغربي ساهمت في القضاء على حكم الصنغاي وإسقاط دولتهم، بعدما وجدوها في حالة من الضعف والانحلال، ثم السيطرة على طرق التجارة، وهذه الحملة أثارت جدلا كبيرا بين المؤرخين حول ماهيتها، بين من اعتبرها غزوا ومن عدّها فتحا، وكانت انعكاساتها كثيرة على المجتمع السوداني في مختلف المجالات.

ان ما أوردته الدراسات السابقة عن الحملة والوجود المغربي في السودان الغربي سواء الأجنبية أو المغربية وحتى المحلية منها، لا يمكننا اعتبارها أحكام مطلقة، تحكم على مدى الدور الذي لعبه المغاربة في المنطقة، وإلى أي حد كانت انعكاسات هذا التواجد في المجال الثقافي، سواء إيجابيا أو سلبيا، وعلى هذا الأساس سوف أقوم في دراسة هذه النقطة الحساسة، وكيف استطاعت العناصر المغربية والسودانية خلق تفاعل ثقافي في المنطقة، كذلك الوقوف على حدث مهم آنذاك الذي عرف بنكبة علماء تمبكتو أو علماء آل أقيت، وأتتبع أبعاد هذه الواقعة وخلفياتها ودلالتها، أمام ما ينسبه مؤرخو السودان على رأسهم أحمد بابا التمبكتي إلى هذا الاحتلال كما أسموه أسباب تأخر الثقافة العربية ثم اضمحلالها من القرنيين:10و11هـ/16و17م[1]، واتهامها بأنها استهدفت تدمير الثقافة العربية الإسلامية التي كانت تضرب بجذورها يوما بعد يوم في أديم تلك المنطقة[2].

ومن جهة أخرى ما يجمع عليه الكثير من المؤرخين أن فترة الحكم المغربي للمنطقة امتازت بتوسع المجالات السابقة من ادخال الثقافة والفنون العربية، وخلق مدرسة اسلامية سودانية، وبصفة خاصة في مجال علوم الدين وصقلتها وأضافت إلى أغراضها الفكرية مجالات وآفاق أكثر عمقا واشراقا وابداعا[3]، واهتمام المغاربة بترقية الفرد السوداني وبنائه علميا وثقافيا وحضاريا[4]، وهذا في إطار التفاعل بين الشعبين.

1. التعليم:

لقد حظي التعليم بنوع خاص من المغاربة منذ نهاية ق:10هـ/16م، بصورة لم تكن معروفة من قبل وأتيح التعليم لكل فئات الشعب السوداني، فلم تعد المدارس وقفا على أبناء العلماء أنفسهم، وعلى عدد قليل من الطلبة يتفق القاضي عليهم من الوقف، بل أصبح التعليم مفتوحا أمام كل راغب في التعليم سواء في الكتاتيب أو الجوامع أو المدارس أو الجامعة الكبرى (سنكري) [5] ، فينما كنا نسمع أن طالب علم أخذ عن والده أو جده أو خاله، أصبحنا نلاحظ اختلاف الأسماء وتنوعها،

وأخذت المدارس الأولية مكانتها الثابتة في توجيه الصبيان نحو المراحل الأعلى وبرزت أنواع من التعليم الذي له صلة بالصنائع وهو الذي كان يؤهل المتدرب على أن يبرع في قطاع من القطاعات وينال شهادة تخريج كان يحمل معها لقب(الفا) أو المعلم لكي يصبح أستاذا في فنه[6].

تكفلت الإدارة المغربية بجميع نفقات وتكاليف مراحل التعليم المختلفة، وبالطلاب الغرباء والأساتذة وتم تنظيم مراحل التعليم الذي أصبح تعليما ابتدائيا ومتوسطا ومتخصصا (تعليم عالي)، ولم يكن هذا التقسيم متعارف عليه قبل قدوم المغاربة، وأعطيت إجازات علمية[7].

أ- التعليم الابتدائي والمتوسط:

ينهض التعليم الأولي بمهمة تدريب الصبي على القراءة والكتابة مع حفظ السور الأخيرة من القرآن وتعلم الفرائض والسنن والمستحبات، يدرسهم ما يعرف بالمعلم أو الفقيه[8]، في مدارس كما أسماها كعت "مدارس معلم الصبيان" التي كانت تتراوح في بداية الحكم المغربي للسودان. غ. حوالي 150إلى 180 مكتبا أو كتابا[9] وكان الصبيان يستعينون بالألواح الخشبية في الدراسة كما ذكرنا في الفصل الأول ويقومون بدفع رسوم تدعى "حق الأربعاء"، حيث يروي كعت عن الشيخ محمد بن أحمد"...أنه حضر مكتب المعلم على تكريا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر وجعل صبيانه ياتونه ودعات وبعضهم عشر ودعات على عادتهم المسماة الأربعاء..." [10]، ولا يزال تعبير حق الأربعاء مستعملا إلى اليوم في المغرب وتنتهي مرحلة التعليم الأولى عادة بحفظ بعض المبادئ الفقهية، وبختم القرآن كله أو جزئ منه وتكون حلفه ختم (جزء الرحمن) مناسبة لتكريم الصبي، حيث يخرج من الكتاب مع أفراد عائلته وبقية الصبيان تتبعهم الزغاريد إلى البيت الذي يعد فيه الأب وجبة الطعام أما المعلم فكان يتلقى جائزة هامة هي عبارة عن كسوة أو 500ودعة[11].

وفي نهاية عهد الصنغاي اتخذت العرصات والدور وبعض المخازن التجارية المهجورة كأمكنة لاحتضان الصبيان المقبلين على التعليم الأولي بالإضافة إلى الكتاتيب التي كانت معروفة قبل الحملة واختصت الدور بتعليم البنات في الغالب فكانت الفقيهات يتولين العناية بهن وحتى ببعض الصبية الذكور، وكان التعليم في القرى الصحراوية مثل أروان وولاتة إجباريا على الذكور والإناث من أبناء الزوايا أو البيوتات العلمية[12] ، ونفس المعلومات المذكورة في هذا العنصر تنطبق على جميع مظاهر التعليم المتوسط، وتعد المرحلتان معا إعداد للدخول مرحلة التخصص.

ب- التعليم العالي:

لم يكن هذا النوع من التعليم الذي يقام في الجوامع يقتصر على الطلبة فقط، بل بإمكان الأشخاص المستمعين أن يأخذوا أماكن لهم في الصفوف الخلفية للحلقة، وتحت أعمدة الجامع كانت تنصب كراســـــي لجلوس الأستاذ وهي أعلى من كراسي الوعاظ والفقهاء، ولم تكن العادة أن يستعمل الأستاذ القضيب كما هو الشأن للمعلم والشيخ، بل يضع رجليه على درجة للكرسي كجلوس الإمام على المنبر، ويمسك طرف عمامته بيده اليمنى، ويجلس الطلبة

على شكل نصف دائرة حيث يجلس المدرس في المركز ويقابله أنجب الطلبة من العلماء أو الفقهاء الذين يتولون سرد النصوص، وكان الأساتذة يفتحون باب النقاش مع طلابهم في النوازل ويمتحنونهم فيما تعلموه في نهاية كل درس، واعتبر صبرهم على تبليغ أدق المسائل ولجوئهم لأبسط الطرق في ذلك من مستلزمات نجاح الأستاذ وشدة تمرسه بمادة التدريس[13].

ودأب الطلبة على اختيار المدرس وحلقة الدرس المناسبة لهم، لذلك كانت بعض الحلقات تكتظ بالمتعلمين والبعض الآخر يحضرها القليلين منهم، وكان من شروط الأستاذ الناجح حسن التوضيح والابتعاد عن التكرار ووضوح الصوت والمواظبة على الدروس، وقد اعتبرت جميع مساجد المدن السودانية أمكنة للتدريس ولكن شهرة جامع سنكري في تمبكتو ضاهت شهرة جامعتي القرويين والزيتونة في فاس وتونس، وكان ذلك الجامع بمثابة جامعة لإفريقيا السوداء، وكان يأتي بعد جامع سنكري جامع سيدي يحي[14]، ثم جامع خالد

الذي درس فيه شيوخ التعليم المتوسط في الغالب[15].

ج- الإجازات:

تعتبر شهادة التخريج أو الإجازة هي إقرار الأستاذ بأهلية الطالب بعد تحصيله التام لفن من الفنون، ويقع النطق بذلك الإقرار أو يحرر على ورقة تدفع للطالب المتخرج، وكانت هناك ثلاثة درجات للإجازة هي: شهادة السماع وتعني أن الطالب تتبع أقوال العالم وحفظها، وشهادة العرض أي سرد الطالب على أستاذه مع استذكار للنصوص ومعرفته بشروحها، ثم الإجازة الكاملة هي أن يصل الطالب إلى المرحلة التي يستطيع فيها ذكر الأسانيد وارجاعها لمصدرها الأول، وذكر الفوارق في الروايات بعد الإلمام بفن معين من الفنون[16].

وقد تعددت المجالات التي يتقنها الطالب ويكون فيها الأساتذة بكثرة، لكن الإجازة لا تعطى إلى نادرا حتى يبلغ الطالب مرحلة التعليق والمناقشة والاجتهاد، ويلاحظ عليه المواظبة والاهتمام، وقد يتحتم عليه أن يلقي درسا بحضور أستاذه لتحصل لديه القناعة بالحكم الذي يصدره أو الشهادة التي سيشهد بها، ولا تعطى الإجازة أو ينطق بها إلا لشخص واحد[17].

وتحضرنا أربعة نماذج من الإجازات وهي إجازة أحمد بابا التمبكتي لكل من المقري وعبد الله بن سعيد بن المنعم الحاجي، وابن الوفا وعبد الرحمن التلمساني (إجازتان) وعبد الرحمن المناري (التمنرتي) وهي خير دليل على التواصل الثقافي بين المغرب.أ. والسودان.غ.[18]، والتشابه في الإجازات بينهما بفعل الاتصال بين علمائها وبصفة خاصة بعد عودة علماء السودان.غ. المهجرين إلى وطنهم الذين سوف نذكرهم في العنصر الموالي ويمكننا أن نميز نوعين من الإجازات التي أعطيت لبعض المتخرجين النوع الأول يتمثل في الإجازات الخاصة التي

تهم فنا أو عدة فنون متحدة الموضوع، أما النوع الثاني فيتمثل في الإجازات العامة التي تشمل فنونا وعلوما متباينة ويقع النص على كل نوع في نص الإجازات القرآنية والحديثية، وكان يراعي فيها الاحتياط في قراءة النص والمعرفة التامة بالقراءات السبع واختلاف الروايات الحديثة، أما الإجازات العامة فهي تقتضي ختم عدة مواد على النحو الذي يؤهل المجاز لرواية العلم عنه

والقدرة على تبليغه للآخرين، ولم يكن ذلك متأتيا إلا لمن لزم المجالس العلمية لسنوات طويلة قد تشمل جانبا كبيرا من حياة الطالب[19].

وقد أعطيت الإجازات مباشرة أو أرسلت لأصحابها، شرط أن يطلع الأستاذ الذي راسله الطالب على باع ونبوغ هذا الأخير بعد الاطلاع على تآليفه[20]، وذكر حسن الصادق عن إجازة وجهها أحمد بابا للفقيه محمد بن الجزولي التمنرتي، الذي اعتبره شيخ الإجازة لا اللقاء[21].

د- الكتب والمكتبات:

شهدت بلاد السودان.غ. في نهاية ق:10هـ/16م اتساع في الحركة الفكرية وتوسع كبير في حركة التأليف والوراقة، إذ أننا نجد بالقرب من جامعة سنكري حوانيت للوراقين على جانبي الطريق، والتي كانت تباع بها الكتب المنسوخة والمخطوطة للطلبة ورجال العلم، وكانت جلها من التآليف الجديدة في نسخ متعددة أو في هوامش جديدة وشرح لكتب قديمة لغرض بيعها في السوق المحلي أو تصديرها لجهات بعيدة في بلاد الهوسا أو بورنو أو مالي[22].

فبتوفر الورق[23] وزيادة عدد المتعلمين في بعد الحملة، أصبح الكتاب يلاقي رواجا كبيرا فيقتنيه أكثر الناس للانتفاع به أو للتبرك أو للزينة، وكانت أثمان الكتب مرتفعة بالقياس إلى مراكش أو فاس وأغلى الأثمان كان يدفع في الكتب المغربية مثل المعيار للونشريسي وأرجوزة المغيلي مع شروحها، وكانت أهم مكتبات السودان هي التي امتلكها آل آقيت، فقد اقتنوا معظمها من التجارة ومما كان يجلبه الحجاج معهم من المشرق ويبدوا أن قسم مهم منها قد وجهه الباشا محمود إلى المغرب.أ.، لكن تلك الكتب أعيدت لأصحابها أو بيعت

واستقرت في الزوايا والخزائن الصحراوية[24].

وقد قدر أحمد بابا مؤلفات مكتبته التي كانت أقل من مكتبات أسرته كتبا وأهمية 1600 مجلد ونجد في كتب التاريخ السوداني ذكر للخزائن التي امتلكها أكثر العلماء من أمثال بوغيوعو ومحمد بن محمود آقيت الذي كانت مكتبته بمثابة خزانة عامة يستعير منها الطلبة والقراء وما يشاؤون من الكتب[25].

ومن أعظم دلالات الازدهار في التأليف ظهور مؤلفات باللغات المحلية بالحرف العربي، ففي جامعة أحمد بللو في زاريا نسخة من القرآن الكريم كتبت في ق:11هـ/17م بخط مؤلفها، ويرجع أحد الدارسين أن اللغات المحلية أصبحت تكتب بالحرف العربي في ذلك الوقت[26]، فظاهرة انتشار الألفاظ المغربية في لغة أهل مالي وحوض النيجر بعد الحكم المغربي ظاهرة فريدة من نوعها لم تكن تقتصر على الكتاب والمؤرخين، بل أصبح كلامها جزءا من كلام عامة السكان[27].

واعتنى أهل الصحراء بجمع نوادر الكتب في قراهم وواحات مثلما فعل أهل سوس وأهل السودان.غ. وقد شاهد السويسي مخطوطا لمحمد الحضيكي صاحب الطبقات يتضمن معلومات عن خزائن السعديين في الجنوب المغربي ونقل عنه بأن السعديين بعد أن حكموا منطقة السودان.غ. صرفوا عنايتهم لجمع الكتب العلمية من أقاصي السودان إلى أقاصي الشرق،

وصانعوا علماء مصر والحرمين وأمرائها على ارسال الخزائن العلمية كما صانعوا نصارى اسبانيا لذلك أيضا، خاصة على أيام أحمد المنصور الذي انقادت له ممالك المغرب.أ. وممالك السودان.غ. إلى نيل مصر، وقد نقل الغربي عن السويسي في مجلده الثاني عشر من المعسول، أن تاجر اسمه سيدي ابراهيم البصير ذهب إلى السودان ووجد في طريقه قرية تدعى شمامة، تتكون من عدة أكواخ عثر فيها على كتب كثيرة، ومن المكتبات المهمة في جنوب الصحراء المكتبة المسناوية بتيقورارين التي كانت تضم في العهد السعدي كتبا من السودان والعراق والحجاز واليمن ومصر والمغرب.ع. [28].

2. العلمـاء:

لقد برز في فترة الحكم المغربي للسودان.غ. عدد من العلماء والكتاب في مختلف فروع العلم والمعرفة[29] وقد ساعدت على ظهور نوع جديد من العلماء السودانيون اهتم بجانب الدراسات التاريخية وتسجيل الأحداث، كالذين ذكرناهم في الفصل الأول أمثال عبد الرحمن السعدي ومحمود كعت، اللذان كان لهما الفضل الكبير في معرفة تاريخ السودان، كذلك أحمد فراطو عن تاريخ بورنو والمؤرخ المجهول عن تذكرة النسيان، وبدأت الحركة الفكرية تؤتي ثمارها المرجوة بفضل انفتاح الباب أمام علماء المغرب.أ. للرحيل إلى الجنوب بصورة جماعية بعدما كانوا أفرادا قبل الحملة، كذلك رحيل علماء السودان إلى المغرب.أ. للاطلاع على مراكز العلوم والثقافة في فاس ومراكش وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية [30].

وبدأت مع الحملة أيضا حلقة جديدة من الصراع بين السياسيين والعسكريين من جهة والطبقة المثقفة من جهة أخرى، ولم يكن اجتهاد الحكام المغاربة في الحفاظ على مراكز العلماء الاجتماعية وعلى التقدير والاحترام إلا بالقدر الذي لا يؤدي إلى إرباك العمل السياسي والاقتصادي، والذي يهمنا هنا هو انعكاس ذلك التجاذب أو الصراع على المجال الثقافي والفكري وما تركه من آثار عليهما[31]، وهذا الحديث يقودنا إلى موقف المنصور من علماء السودان.غ.، خاصة علماء تمبكتو.

أ- نكبة علماء آل أقيت:

شكل تاريخ 25 محرم 1002هـ/1593م، يوما مفصليا ومنعطفا كبيرا في تاريخ الحملة السعدية وفي مسار وتاريخ علاقات المغرب.أ. ببلاد السودان.غ.، وتشير المصادر خاصة السودانية منها على رأسهم السعدي إلى أن هذا الحدث مرتبط بتردي الأوضاع في بلاد السودان.غ. بعد التدخل المغربي في المنطقة

وبالموقف الذي أبداه علماء حاضرة تمبكتو[32]، خاصة من عائلة آل أقيت[33]، فبعدما عاد الباشا محمود من "رأس الماء" ودخوله تمبكتو، راح أفراده بتوجيه منه يفتشون البيوت ويأخذون الحلي ذات القيمة منها ليوافوها إلى سلطانهم في مراكش كهدايا وغنائم، لذلك رفع أحمد بابا[34] عقيرته بالاحتجاج ضد هاته الأحداث التي اعتبرها غزوا واضطهادا، فخشي السلطان لما قد يكون لذلك من تأثير على السكان ليستمروا في المقاومة، أمر بنفيه هو وأفراد عائلته إلى مراكش[35].

ويقول محمود كعت في هذا الصدد أن الباشا طلب بتجديد البيعة للسلطان احمد في مسجد سنكري "... فجمع كافة أهل تمبكتو بالمسجد المذكور واحضروا المصحف والبخاري ومسلم ضحوة يوم الأربعاء أربعة وعشرين منه (شهر محرم) فلما اجتمع الناس غلقت أبواب المسجد ووقف الرماة على الأبواب والسطوح فكان من أمر الله ما كان مما لا ينبغي ذكره ولا يحتمل القلب جلب ما كان هنالك..." [36].

ويؤكد السعدي ذلك بقوله"...فلما إجتمع الناس في الجامع غدا غلقت الأبواب وأخرج الناس إلا الفقهاء وأصحاب وأتباعهم قبضهم جميعا الباشا محمود بن زرقون يومئد وهو يوم الأربعاء الرابع والعشرين من المحرم فاتح عام الثاني بعد الألف وأسرهم وأمر بهم إلى القصبة فريقين فريق ذهب بهم في وسط البلد وفريق ذهب بهم خارج البلد من جهة القبلة وفيهم الشهداء الذين قتلوا يومئد..." [37]، فمات من مات ومن بقي فقد اسروا وقدر كعت عدد القتلى من أهل تمبكتو اربعة عشر شخصا، اثنان من ونكر واثنان من السودان وواحد من الحدادين اسمه عبدل[38]، وتسعة أخرين من أهل سنكري[39].

ويضيف السعدي بعد ذلك قائلا:"...ثم ذخل الباشا محمود في ديارهم فرفع جميع ما فيهن من الأموال والمتاع والأثاث الاتي لا يحصيها إلا الله ما بين أملاكهم وأملاك سائر الناس من الودايع ونهب أتباعه ما اتصلوا بها وكشفوا عوراتهم وجردوا حرائرهم وفعلوا بهن الفواحش..."[40]، أما الأسرى منهم فقد اقتيدوا في ظروف قاسية مصفدين في سلاسل وأغلال من حديد إلى مراكش، ومعهم حريمهم وذخائرهم وكتبهم[41]، وطائفة من أولادهم وهم نيف وسبعين[42].

وبالنسبة لأسماء العلماء والفقهاء الذين كانوا مسجونين هم: عبد الرحمن بن محمود بن عمر بن محمد أقيت، وعبد الرحمن بن محمود بن عمر، ومحمد سيف السنة بن القاضي العاقب بن محمود بن عمر كذلك عمر بن الحاج أحمد بن عمر المعروف بابا كري شيخ المداحين، و القاضي عمر بن محمود بن عمر وأحمد بابا التمبكتي[43]، وقد وصلوا جميعا إلى مراكش سنة 1002هـ/1593م واستقروا مع عيالهم في حكم الثقاف(الإقامة الجبرية)، وبقوا على هذه الحال إلى ان انصرم أمد المحنة التي دامت عامين، فسرحوا يوم الأحد21 رمضان 1004هـ/ماي 1595م شرط أن لا يغادروا المدينة، ففرحت قلوب المؤمنين بذلك[44].

ب- أبعاد ودلالات النكبة:

لقد خلفت هذه الواقعة التاريخية التي حلت بالعلماء والفئة المثقفة بصفة عامة، وعائلة آل آقيت بصفة خاصة، آثار مست الجانب الثقافي والحركة العلمية في منطقة السودان.غ. ولو لفترة قصيرة خاصة بعد نهب كتبهم ومجلداتهم، كذلك ما تركته هذه المحنة من أثر عميق واحساس أليم في أنفس العلماء المغربين والمبعدين عن بلادهم وهذا ما يثبته الناصري في قوله: أن المولى زيدان أذن لعائلة آل أقيت في الرجوع إلى بلدهم بعدما توفي أبوه المنصور، بعدما لقى بعض منهم حتفهم بمراكش، فلما خرج أحمد بابا من مراكش قاصدا بلده شيعه أعيان طلبتها فأخذ بعضهم بيده عند الوداع وقرأ قوله تعالى: ﴿ان الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾[45]، على ماجرت به العادة من قراءتها عند وداع المسافر فيرجع سالما، فانتزع الشيخ أبو

العباس يده وقال: "لا رادني الله إلى هذا المعاد ولا رجعني إلى هذه البلاد"[46]. ولعل هذا القول يفسر الأثر العميق على نفسية آل آقيت والعلماء بعد المحنة وبقائهم في مراكش.

لكن رغم صحة هذه الحادثة المشار إليها فإنه يمكن اعتبارها مجرد حادثة سير في مسيرة الحركة العلمية في تمبكتو مستدلين بذلك على مجموعة من المعطيات تثبت عكس ما ذهبت إليه الكثير من الكتابات التاريخية التي بالغت في تصوير هذه الواقعة وعليه فإن:

استهداف المنصور لعائلة آقيت على رأسهم الفقيه والعالم أحمد بابا، لا يقصد استهداف دورهم الثقافي في السودان.غ.، وانما كان استهداف دورهم السياسي، خاصة وأن المصادر التي أرخت لتلك الفترة (كعت، السعدي) تتفق على أن أحمد بابا ومن خلفه الفئة المثقفة في تمبكتو لم تقدم البيعة للسلطان أحمد المنصور، مما

يعني تحولهم عن دورهم الثقافي إلى ممارسة دور سياسي[47].

وأن الباشا محمود بن زرقون بمجرد ترحيل آل آقيت إلى مراكش قام بتولية قاض جديد لمدينة تمبكتو وهو محمد بن أحمد بن عبد الرحمن المتوفي عام 1017هـ/1594م، وذلك بعد عزل القاضي عمر بن محمود أقيت عام 1003هـ/1594م[48]، ورسم أئمة لبعض المساجد، وحمل المدرسين على استئناف دروسهم التي توقفت لعدة أشهر، وبصفة عامة فإن الحياة الثقافية واصلت عملها بنفس الثقة والفاعلية السابقتين، وأكثر من ذلك فقد تجدد الوجه الثقافي للسودان.غ. بعد ظهور عوامل دافعة جديدة من بينها مجيء مدرسين وعلماء من المغرب.أ. وانتقال الكتب والورق عن طريق التجارة[49].

كما أن الباشا أحمد بن حد بن يوسف الأجناسي، الذي تولى الباشوية عام 1061هـ/1650م كان رفيقا بالناس ومعظما للعلماء والصالحين ومحسنا إليهم[50]، كما أحسن الباشوات المغاربة كثيرا للمؤرخ عبد الرحمن السعدي، ومن أمثلة ذلك الباشا محمد بن محمد عثمان الشرجي الذي عينه كاتبا له عام 1056هـ/1646م، وقد استمر ذلك التقدير للسعدي من قبل خلفاء الباشا محمد الشرجي حيث ظل يمارس ذلك المنصب الهام في تمبكتو حتى وفاته ما بعد عام 1066هـ/1655م[51].

وإذا كان أحمد بابا قد استقدم إلى مراكش بسبب معارضته للسلطان فإنه مع ذلك عومل بغاية الاحترام وأنزل هو وأهله منزلا كريما في رياض بدرب عبيد الله بحي المواسين إلى جانب جامع الأشراف والمعروف عن حي المواسين أنه حي علية القوم وأعيان البلد ورجال الدولة، ومما يدل أن أحمد بابا لم يكن في حالة سجن أو اعتقال أنه كان يستقبل الزوار لا سيما طلبة العلم في مراكش، الذين ما قصروا في مؤانسته ومساعدته وتلبية رغباته ومطالبه العلمية وهو يعترف بهذا في مقدمة كتابه اللآلئ السندسية[52]، وكانت حياته في مراكش خالية من أي رقابة أو متابعة، بل أنه انتدب للتدريس والإفتاء بجامع الأشراف، وكان يتحرك ويسافر أينما يشاء ومنه فإن الفترة المغربية من حياة أحمد بابا (1001هـ 1593م إلى1010هـ1607م) كانت

أخصب مراحل حياته الثقافية، فقد ألف أهم وأشهر مؤلفاته التي تزيد عن النصف فيها، أي 29 أو تزيد من مجموع مؤلفاته المعروفة التي يبلغ عددها 56 مؤلفا[53].

وبالتالي فقد ساهم أولئك المهجرون في الحركة العلمية بالمغرب.أ.، فأخدوا وأعطوا، وألفو في الكثير من الأغراض، لكن أهم مادة امتاز بها نشاطهم العلمي هي التراجم، ذلك لأنهم وجدوا من المصادر حول أعلام الإسلام ما لم يكن متوفرا لهم في بلادهم فأعانهم ذلك عن إغناء المكتبة المغربية والسودانية بالجديد والطريف في الميدان، وكانت المؤلفات السودانية التي وضعت بمراكش تستنسخ ويتهافت التجار على شرائها لبيعها في السودان.غ. [54]، لكن رغم ما ذكرناه فإن أحمد بابا ظل يعتبر نفسه مظلوما وكان ينظر إلى السلطان أنه ظالم وقد صنفه في بعض مؤلفاته مع الحجاج وسني على[55].

ولم تفتقد العائلة رغم ما شعروا به إلى ميزتها في علاقاتها بالسلطة السياسية ببلاد السودان.غ. من جرأة وصلابة وشجاعة، وهذا ما يفسره تفاجئ السلطان من أحمد بابا في موقفه منه حول تكليم الناس من وراء حجاب على طريقة سلاطين بني العباس، والجرأة والحنكة التي استعملها أحمد بابا في مواجهة المنصور حتى أسكته، وهذا الموقف يبين أن سلطة المنصور لم تنل من سلطة أحمد بابا رغم امتلاكها وسائل الترغيب وأدوات الترهيب ورغم كل الإجراءات التي التجأت إليها[56].

ومن هذا كله نستنتج أنه لا يمكن أخد هذه الحادثة سواء بسلبياتها وايجابياتها ونعممها على مجال جغرافي واسع وإطار زماني طويل ونقوم بإسقاط هذه الواقعة على الثقافة العربية الإسلامية في السودان.غ. ونضع موقف المنصور من هؤلاء الأشخاص محل نزاع بين الطبقة العالمة والباشوات المغاربة.

إلى جانب العلماء الوافدين من المغرب.أ. وإليه نشأت شريحة كبيرة من العلماء الأفارقة من دوي الأصول الصحراوية والمغربية، الذين نجد أسمائهم في مؤلفات أحمد بابا وخاصة كتابي النيل والكفاية إضافة إلى ما ذكره كعت و السعدي، فضلا عما ذكره المتأخرون أمثال الشيخ العتيق بن الشيخ سعد الدين الدغوغي السوقي في كتابه الموسوم بـ: "الجوهر الثمين في أخبار صحراء الملثمين ومن يجاورهم من السودانيين"[57]، ولو أردنا أن نقتصر فقط على أسماء الأسر العلمية ذات الأصول الصحراوية والمغربية، لما وجدنا أحسن من كتاب البرتلي الولاتي المعروف بـ"فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور"، شاهدا على كثرتها وتفرعها من أسر مغربية وصحراوية عربية أو أمازيغية، أمثال أسرة آل التواتي والولاتي والغلاوي، والفيلالي، والوداني، والكنتي والجكني، والأرواني، والدليمي، والمحضري والبلبالي، والتادلي والدكالي، وغيرهم من الأسر التي ساهم في إثراء الثقافة العربية الإسلامية في منطقة السودان.غ. [58].

3. الحركة الفكرية:

ان ما يمز الحركة الفكرية في السودان.غ. أثناء الحكم المغربي إلى جانب انتشار اللغة العربية والاعتناء وتنظيم التعليم، ظهور مناخ وأغراض فكرية متنوعة بعد أن انحصر العمل العلمي في السابق كما رأينا في الناحية الدينية وفي الأراجيز اللغوية والمنطق، وقد ظهر مؤرخون سودانيون، وازداد التفاعل بينهم وبين المغاربة وبرز كتاب التراجم ومؤلفون في الأصول والتفسير

والمسائل وعلوم اللغة، وأدباء وشعراء أعطوا للحركة الفكرية دفقا جديدا ونفسا لم تعرفه تلك البلاد قبل الاحتكاك الواسع مع المغرب.أ.، حتى أصبح السودان.غ. يساهم بالقدر الذي لا ينكر في إغناء الفكر العربي ودفع الثقافة العربية بالنسبة للقارة الإفريقية كلها، بل وأصبحت بعض تآليف علماء السودان تدرس في جامعات المغرب.ع. والمشرق، وتصدر للتدريس مفكرون سودانيون بتلك الجامعات[59]، وسوف نورد أهم ما تجلت فيه الحركة الفكرية في ذلك الوقت فيما يلي:

أ- الآداب وأسلوب الكتابة:

وجد المغاربة عند حلولهم بالسودان.غ. نمطا من الآداب شعرا وقصصا وطرفا يستمد أصالته كما ذكرنا سابقا من الحكايات الإفريقية وقصص البطولات والحروب، لكنه آداب غير مكتوبة تعتمد على الرواية لكن بعد انتشار الإسلام في المنطقة بدأت تسجل بعض المحاولات على الورق لم تبلغ شأنا يمكن الاعتداد به كما لم تتجاوز بعض المدن السودانية[60]، ولم يعثر لكتاب الصنغاي على أشعار رغم أنهم كانوا على إطلاع بالأشعار العربية والكتابات المنمقة لدى الهمداني والحريري وغيرهما[61]، ولا نعلم عن شعر اختص به شعراؤهم وتفننوا فيه وما يذكره الغربي عن تلك الأشعار المتمثلة في قصيدة منسوبة للعالم الشيخ سيدي يحي التادلسي في رثاء القاضي محمد الكابري، كذلك نسبت قصيدة لأحمد بابا التمبكتي قالها في مراكش وهو يحن لوطنه، أما القصيدة الثالثة فقد ألقاها محمد بن محمد الأمين حين ورد من المغرب.أ. أحد شيوخ سوس محمد يحي الولاتي وغرضها المدح، لا تعدوا أن تكون محاولات من فقهاء وعلماء كبار لم يبرعوا في قصائدهم كما برعوا في علومهم[62].

أما بالنسبة للكتابة، فإن المغاربة بعد الحملة وجدوا أن الكتابة باللغة العربية بلغت مستوى متوسطا لدى كتاب ذلك الوقت من السودانيين كما، فقد كتبوا في مواضيع اجتماعيه عديدة من خلال كتابتهم في التاريخ والفقه الإسلامي[63]، ونحن بهذا لا نقلل من أهمية اللغة العربية آنذاك، ولا نستهزئ بالكتاب السودانيين الذين جاءت كتاباتهم سطحية وتعتمد على كلمات عامية وتراكيب ضعيفة، لكننا نستنتج منها أن اللغة العربية لم تكن في أحسن أحوالها ببلاد السودان.غ.، ومما يلاحظ على أسلوب كتاب السودان المخضرمين أنه يختلف اختلافا بينا بحلول ق:11هـ/17م عما كان الشأن عليه سابقا فنجد أن السعدي مثلا يكتب في آخر أيامه بأسلوب سلس بعيدا نسبيا عن الركاكة بعد احتكاكه بشكل أفضل بالثقافة العربية واطلاعه على أسرارها وجماليتها[64].

وظاهرة انتشار الألفاظ المغربية في لغة أهل مالي وحوض النيجر التي خضعت للحكم المغربي ظاهرة فريدة من نوعها تستحق منا وقفة خاصة، فالظاهر أن استعمالها لم يكن مقصورا على أولئك الكتاب المؤرخين الأربعة: كعت، والسعدي، مجهول وتذكرة النسيان، ووفيات مولاي قاسم بن مولاي سليمان"[65]، الذين كانوا من المفروض أن يتجنبوا استعمالها إما لأنها في الغالب من الدارجة، واما لكونها من الفصيح الذي انحرفت دلالته أو انحصر استعماله في بيئة جغرافية معينة، لكن اضطرارهم لإستعمالها دليل على كثرة شيوعها مع كثير من التعبيرات الأخرى ذات الخصوصية المغربية، في بيئتهم ومجتمعهم السوداني، ودليل على أنها كانت طاغية ومتغلبة حتى على الفصحى نفسها، أن الطبقة المثقفة لم تكن تجد حرجا من استعمالها

في الكتابة والتأليف، أو ربما كان في ذلك دليل على ضعف المستوى التعليمي عند هؤلاء المؤرخين، لأنهم لم يقيموا في المغرب.أ. أو زاروه، وكل ماهناك أنهم نشأوا في مجتمع مكون من جالية سكانية مغربية وذات تأثير قوي، ومع مرور الوقت أصبح كلامها جزءا من كلام عامة الناس[66].

وقد وضع الودغيري قائمة للألفاظ والعبارات التي استخرجها من النصوص الأربعة الآنفة الذكر وقدمها على شكل قاموس رتبت مداخله التي تقترب من 250 كلمة وتعبيرا، ترتيبا ألف بائي حسب الحرف الأول منها مع تعريفات وتعليقات مقتضبة وشواهد نصية لتوضيح السياقات الاستعمالية[67].

بالإضافة إلى تلك النصوص يوجد هناك شخص آخر وهو أحمد بن القاضي الفلاني الدوجقي الذي عاش فترة من حياته في تمبكتو ثم جنى، فقد كتب رسالة سماها "هتك الستر عما عليه سودان تونس من الكفر"، وأعطاها لحاكم تونس حمودة باشا قبل دخوله المغرب.أ.، فرغم أنها تحتوي على لفظين مغربيين هما:" زغرتوا ويكتفوا أيديهم"، إلا أن ذلك كاف ليدل على أنه ابن القاضي جاء من بلاد السودان.غ. متأثر باللهجة المغربية، وتوجد في كتاباته عدد من الألفاظ من أصل افريقي، وأصبح أغلبها مستعملا في العامية المغربية منذ الحكم المغربي للمنطقة تبين قوة التأثير المتبادل بين المنطقتين[68].

ب- الشرعيات وعلوم اللغة:

ظلت العلوم الشرعية وعلوم اللغة مادتين أساسيتين في الحركة الفكرية السودانية خلال فترة الحكم المغربي، رغم ظهور مؤلفات وحواشي وشروح لبعض الأمهات المعروفة، فإن أغلب ما أنتجوه في هذا الميدان –وان لم نقل كله- كان خاليا من نفحة التجديد، وخيمت ظاهرة التقليد والاختصار على الحركة الفقهية، وكان أحسن العلماء حظا من يمحص أقوال العلماء السابقين ويناقشهم ويعلق على أقوالهم حتى أصبحوا لا يرددون إلا ما قاله الأوائل، وأكثر من هذا فإن نصوص الكتاب والسنة لم تعد محل استدلال، وانما أقوال العلماء هي التي حلت محل النصوص الشرعية[69].

ويرجع ذلك في الأساس إلى الحافظة والخوف من التحريف، والخشية من ولوج ما يمكن أن يحمل على المؤاخذة والتعنيف، وليس أكثر من المذهب المالكي الذي كان مذهب المغرب .ع. والسودان[70]، حرصا على النقل الدقيق والعرض الأمين ومن هنا صدر تقييم على المدرسة الشرعية السودانية واتهامها بالقصور والمعرفة السطحية لأغراض الشريعة[71].

ولعل بعض علماء السودان كانوا محاصرين بما يمكن تسميته باختلاط المفاهيم عند بني جلدتهم وبتصور الجمهرة السودانية من المثقفين وأنصافهم بأن الفكرة وحامل الفكرة لا يختلفان موضوعا ولا شكلا عن السحر والساحر القديمان، لذلك كان العلماء المدرسون يستعملون لغة تكاد تكون غير مفهومة، وكان السوداني يعتبر عالم الشرع والفقيه والقاضي جزء من كيان الشرع نفسه، حتى نسب لبعض أولئك الرجال الخوارق والكرامات وصفوا في عداد الصالحين والأولياء[72]، لكن

بعضهم يؤمن بالخرافات كخط الرمل وضرب الودع وأشباه ذلك ويؤمنون بأهل السحر السر، الذين يستعملون أسماء الله وآياته في غير المباح، لأن أسماء الله وآياته إذا استعملت في غير جائز فذلك سحر، كاستعمالها للتفريق بين الزوج والزوجة، أو يكتبون لمن أراد حاجة عند أحد وغيرها من الأشياء التي يتصورها الكثير أن هؤلاء السحرة لهم قدرة وتأثير، فداع صيتهم وكثرة رزقهم[73].

وبعد الحملة المغربية على المنطقة وازدياد تدفق العلماء المغاربة على السودان.غ. كثرت التآليف من شروح في الفقه والمنطق والعروض ألفها علماء سودانيون[74]، وقد حظيت كتب رجال المذهب المالكي بنصيب وافر من المؤلفات، فقد ألف أحمد بابا "نيل الابتهاج" ذيلا "الديباج المذهب" لابن فرحون وألف ديلا عليه محمد بن محمد بن ابراهيم العلمي الحسني(ت:1073هـ/1662م) سماه "إيضاح السبل لمن بالديباج والتكميل"[75]، كذلك بعض النوازل الفقهية وأشهرها مجموعة الأسئلة التي توصل بها أحمد بابا من سعيد ابن ابراهيم الجراري التواتي ومن يوسف بن براهيم بن عمر السوسي حول الاسترقاق الذي مس المنطقة بعد الحملة[76].

أما في ما يخص ميدان اللغة وفقهها والنحو وأسرار البيان فقد اشتهر أيضا علماء عرفوا بما تركوه من آثار وبما طبعوا به المدرسة السودانية في هذا الميدان[77]، وأغلبها يتصل بالمؤلفات النحوية مثل شرح المقدمة الأجرومية المسمى بالفتوح القيومية لأحمد بن أند غمحمد التمبكتي(ت:1045هـ/1635م) الفقيه النحوي اللغوي[78]، وهو شرح حسن فيه فوائد مهمة وفروع وتتمات، كذلك شرح آخر للمقدمة السابقة لعبد الله الولاتي(ت:1030هـ/1620م) وهو شرح حسن ومختصر[79]، كذلك الفقيه اللغوي النحوي الشريف محمد بن الإمام الإدريسي الذي شرح شرحا مفيد وحسن في نظم أبي بكر الطفيل" قطر الندى"، و شرح كتاب البسط والتعريف للمكودي الفاسي[80]، وغيرهم من كتبوا في مجال اللغة لكن احترام المجتمع لهم كان دون احترام للعلماء والفقهاء الشرعيين[81]، وسوف نورد بعض التراجم باختصار لعلماء وفقهاء نبغوا في بداية العصر المغربي:

محمد بن أبي بكر الونكرمي التمبكتي الذي عرف ببغبغ(بيغيوغو):

رغم أنني تطرقت إلي ذكره في الفصل الأول كعالم من العلماء المحلين، إلا أني ارتأيت أن أدرجه لأنه من بين أهم العلماء الذين نشطوا قبل وبعد الحملة المغربية، يقول عنه أحمد بابا"...وبالجملة فهو شيخي وأستاذي ما انتفعت بأحد انتفاعي به وبكتبه[...]كان حاضرا يوم الكائنة العظمى علينا بتمبكتو فنجاه الله تعالى فكان آخر عهدي به، ثم بلغني وفاته يوم الجمعة ن شوال في عام اثنين وألف(1593) رحمه الله وأخبرني أن مولده سنة ثلاثين وتسعمائة..."[82]، وله تعاليق وطرر على هفوات لشرح خليل وغيره وتتبع شرح التتائي الكبير الذي بين ما فيه من السهو نقلا وتقريرا في غاية الإفادة وله فتاوي عديدة واعتبره أيضا احمد بابا شيخ وقته في الفنون لا نظير له، كان معه لمدة عشرة سنوات وقرأ له مختصر خليل وفرعي ابن الحاجب، ختم عليه الموطأ وحضر له ثلاث مرات في المنتقى والمدونة بشرح المحلي، وألفية العراقي في علم

الحديث مع، كذلك تلخيص المفتاح مرتين بمختصر السعد وصغرى السنوسي مع شرح الجزيرية، وسمع بقراءته كثيرا من البخاري ومسلم كله، وبقراءة غيره دروسا من الرسالة والألفية وغيرها[83].

أحمد بن الإمام صديق:

هو أبو العباس الفقيه أحمد بن الإمام صديق بن محمد تعلي، كان رحمه الله عالما فقيها ورعا وتقيا زاهدا عالي الكعب في الفقه عاملا بعمله، تولى امامة الجامع الكبير يوم الأربعاء 17 صفر989هـ[84] بأمر القاضي العاقب بن القاضي محمود، ومكث فيها 26 سنة و6 أشهر،9 أو 10 سنين منها في مملكة صنغاي، ويعتبر آخر أئمة دولتهم، أما الباقي فتحت الحكم المغربي[85]، كرس حياته في التدريس والإمامة والإفتاء حتى توفي يوم الجمعة 9 رمضان 1005هـ[86].

محمد بابا بن محمد الأمين حبيب(أبو عبد الله):

وصفه السعدي بالعلامة الفاضل البارع المدرس، درس في تمبكتو وتخصص في شتى الفنون برع في العلم درس وألف، خاصة في الفقه والنحو والكلام، وله فيها محاولة جيدة وعبارة مجدد، من أساتذته عبد الرحمن بن الفقيه محمود، لازم الشيخ سيدي أحمد حتى أتقن النحو، وقرأ مختصر خليل على الشيخ معيا والتوضيح وجمع الجوامع على ابن الحاجب، وقرأ الموطأ والمدونة على الشيخ عبد الرحمن، وأجازه بعض أولئك الأساتذة، كانت له عدة تآليف أهمها شرح الفية السيوطيّ، تكملة البجائي على اللامية، شرح ملفقات شواهد الخزرجي، وله حاشية على البجائي، وقطعة على مقامات الحريري، وكان ينشيء الشعر حتى رثاه بعض الشعراء عند موته 1605م[87].

أحمد بن اندغمحمد:

هو الفقيه سيدي أحمد بن أندغمحمد بن أحمد بري بن أحمد بن القاضي أندغمحمد التمبكتي كان رحمه الله عاملا صالحا، فقيها نحويا لغويا وأصوليا وبلاغيا مشارك في علوم عديدة ولاه الباشا محمود قاضيا على تمبكتو عام 1020هـ، له عدة تآليف أهمها شرح الحسن على الأجرومية سماه "الفتوح القيوم"، كرس جهوده في التأليف والتدريس والقضاء، توفي في 13 محرم 1045هـ[88].

الأمين بن أحمد المجتهد:

ولد في تمبكتو سنة 957هـ لعائلة اشتهرت بالعلم والتدريس، عرف بأنه كان رطب اللسان بالذكر فقيها نحويا تصريفيا لغويا له حظ في معرفة الصحابة، كانت وفاته في سنة 1041هـ/1631م[89].

أحمد بن محمد الفلاني(أبو العباس):

ينتسب هذا العالم لمنطقة مسينا، درس في تمبكتو وبرز في العلوم الشرعية وتصدى للتدريس وعندما داهمه المرض في بلده نقل من قرية "أنكم" بواسطة قارب لكنه مات عند وصوله ميناء كبارا ودفن في تمبكتو سنة 1035هـ/1625م[90].

محمد بن سعيد كداد:

من أبناء قبيلة الفولبيه بغرب السودان، برز في الحديث والفقه وكان مدرسا وواعظا توفي عام 1035هـ[91].

محمود سري بن سليمان:

كان علماء تمبكتوا يطلقون عليه اسم الفع (محرفة عن الفقيه)، تعلم في جنى ثم انتقل للتدريس في تمبكتو، وكان عالما محدثا منطقيا، توفي في جنى بعدما عاد إليها للتدريس عام 1028هـ/1618م[92].

لقد قمت بذكر تراجم بعض علماء السودان.غ. في مرحلة الإدارة المغربية للبرهنة على استمرار النهضة العلمية في المنطقة على يد الأغلبية من حملة العلم والمثقفين أمثال عبد الله بن أحمد ابن سعيد ومحمد عيسى ابن علي التلمساني، وصالح بن محمد أندي المعروف بالشيخ العمري، وأبو القاسم التواتي وعبد الرحمن ابن علي وغير ذلك من العلماء والفقهاء[93]، الذين أوضحوا العمل المشترك بينهم وبين العلماء السودانيين لخدمة العلم ونشره بين طبقة المثقفين والمتطلعين إلى المعرفة، وابراز كذلك النشاط الذي ظل دائبا في ميدان التأليف والتحشية والتعليق والمناقشات في المسائل والنوازل الفقهية واللغوية واقرار بالمكانة التي حظي بها العلماء في أعين الناس التي لم تمسها واقعة تمبكتو(نكبة العلماء)، حيث أبدى الحكام الجدد الاحترام والتقدير لهاته الفئة وأعفوهم من التكاليف المخزنية، ولم يكن لأحد الحق في النظر في أية شكوى ترفع ضد عالم أو فقيه أو موظف ديني كبير إلا للباشا نفسه عملا بوصية الأسكيا محمد، وقد حدث كثيرا أن سمحوا للفقهاء بالشفاعة في بعض رجالات الجيش فعفا عنهم[94].

وقد ذكر السعدي مثالا عن الأخذ برأي العلماء وتقبل النقد والنصيحة عندما توفي أحد الباشوات وحملوه للدفن في مسجد محمد ناضي، فنهاهم العالم محمد بغيوعو وغضب من الباشا وحمله مسؤولية هذا العمل لأن الميت نجس والنجس لا يدخل المسجد[95]، فاحترمه واستمع له تشبها بما كان ينقل من أخبار عن أحمد باشا وتقديره واحترامه للعلماء[96].

ج- التاريخ والرحلات:

لقد بدأ في ق:9هـ/15م يظهر ما يعرف بعلم التاريخ في السودان.غ.، وجاءت البدايات مع بابا كور صاحب "الدرر الحسان في أخبار بعض ملوك السودان"، لكن هذا العلم لم يستوي إلا في نهاية ق: 10هـ/16م، وبداية ق:11هـ/17م، حيث أنه لم يصل إلى الباحثين في تاريخ السودان .غ. أن أبناء تلك المنطقة وضعوا كتبا مستقلة في التاريخ أو الرحلات قبل الحكم المغربي للمنطقة ولم يشر أي مؤرخ سوداني إلى أن شيئا من ذلك قد أنجز[97]، وهذا ما يثبته السعدي في بداية كتابه حيث ذكر أن التاريخ السوداني لم يكن مدونا قبله، وكان عبارة عن قصص يرويها أجدادنا في المجالس يذكرون أشياخ بلادهم وملوكهم وسيرهم وقصصهم وأنبائهم، وسير الصحابة والصالحين، ثم بعد ذلك انقرض ذلك الجيل ولم يبق إلا نقل أخبار التباغض والحسد والاشتغال بما لا يعني وذلك من أسباب خاتمة السوء[98].

وقد كان أهم انتاج تاريخي في فترة مملكة صنغاي يتمثل في كتابي محمود كعت وعبد الرحمن السعدي رغم أن هؤلاء الكتابان لم يعرفا إلا بعد الحملة، بالنسبة للكتاب الأول فمن الصواب التصور بأن الأسكيا الحاج محمد الذي اجتهد في تقليد

أمراء المشرق بعد رجوعه من الحج، ونقل إلى بلاده جملة من كتب التاريخ، ورغب في تسجيل سيرته وأعماله، ومنه لا يستبعد أن كعت الذي بدأ حياته قريبا منه، قد ندب للقيام بذلك والعاطفة التي كان يكتب بها عنه تبين ذلك[99].

لكن كتاب السعدي لم يعرف كما قلنا إلا بعد الحملة، ومنه فإن فن التاريخ المستقل عن آداب الرحلات وتراجم الرجال لم تعرفه بلاد السودان.غ. إلا مند أواخر القرن السادس عشر باتفاق كل المصادر[100] ، حيث ظهر على التوالي ثلاث كتب يعتبرون من أهم الكتب في تاريخ السودان في تلك الفترة ولا يستطيع أي باحث في تاريخ المنطقة حتى الآن أن يستغني عنهم في دراسته وأنا لست في صدد أن أعرفهم أو أعرف أصحابهم لأن الكثير من المراجع ذكرت وعرفته بإسهاب وهم:

كتاب" تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد الأحرار"، لمحمود كعت (1468هـ/ 1593) ، وكتاب "تاريخ السودان" للشيخ عبد الرحمن بن عبد الله السعدي (1004-1005هـ/1596م، 1065-1066هـ/1655م) [101] وكتاب "تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان"، لكاتب مجهول[102].

أما بالنسبة للرحلات فإن بعد دراستنا لتاريخ إفريقيا جنوب الصحراء خاصة بعد انتشار الإسلام لا حظنا تطلع الأفارقة بمختلف الطبقات من ملوك وفقهاء وعلماء وحتى التجار إلى زيارة البلدان الأجنبية خاصة الأماكن المقدسة في شبه الجزيرة، واجتهادهم في كتابة ما شهدوه، لكن شح المصادر السودانية أو ضياع تلك الرحلات يعتبر مشكل في دراسة هذا النوع من البحوث إذا تجاوزنا الذكر عن الرحلة العلمية وما يؤكد تدوين هاته الرحلات رغم وجود واحدة فقط، ما ذكره أحمد بابا في كتاب نيل الابتهاج المتعلقة بالفقيه خالد بن عيسى بن أحمد البلوري التي استفاد منها كثيرا لكنها لم تعد مجودة[103].

والدارس لكتاب عبد الرحمن السعدي "تاريخ السودان" يلاحظ أنه كتاب رحلة أضافها لكتابه وقد أنجز جزء منها مع الباشا حين كان كاتبا له، حيث تضمنت على أوصاف دقيقة للأماكن والقبائل والحالة الاقتصادية وأحوال الأمن ووسائل النقل[104].

وقد قسم رحلته إلى ثلاث مراحل حسب الغربي الأولى من تمبكتو إلى مسينا[105]، والثانية ضمن بلاد ماسينا[106]، والثالثة من جنى إلى تمبكتو[107]، وهذا يعتبر دليل آخر في الكتابة في هذا النوع من الكتابات.

د- التراجم:

ان ابرز ما اهتم به كتاب السودان.غ. هو كتابة تراجم الملوك والرؤساء وأشياخ بلادهم والعلماء وهذا ما ذكره السعدي في بداية كتابه[108]، لكن بالرغم من أنها كانت في موجودة فإنها لم تصل إلينا والملاحظ على هذا النوع من الكتابات أيضا أنه ظهر بالشكل الجلي إلا بعد الحملة المغربية شأنه في ذلك شأن كتابات التاريخ حيث يلاحظ أن السعدي كتب في هذا النوع

الذي نحن بصدد دراسته لكنه لم يضعه في كتاب منفصل بل أدرجه في تاريخ السودان كفصلين مندمجين، كذلك الشأن عند المؤرخ المجهول الذي عرض كتابه عن باشوات السودان على شكل تراجم مرتبة على حروف المعجم[109].

لكننا إذا قمنا بمقارنة كل ما كتب في التراجم سواء المفقودة منها أو ما ذكرناها سابقا عنها، مع ما كتبه العالم السوداني أحمد بابا الغني عن التعريف نجد فرق شائع من حيث القيمة المعرفية للمؤلف "نيل الابتهاج" فقد ترك كنز ثمين اكتسبته منطقة السودان بصفة عامة والعالم الإسلامي بصفة خاصة على صعيد كتابة التراجم قديما وحديثا وأصبحت شهرة أحمد بابا كبيرة بمقدار ما كانت شهرة ابن خلدون في البلدان العربية على الخصوص[110].

وقد أشاد الكثير من الكتاب به وبكتابه وأشاروا إلى أنه كان ثقة فيما يرويه عن معاصريه[111]، وقد ابتدأ كتابة نيل الابتهاج في تمبكتو وأتمه في مراكش، ثم وضع له تكملة سماها "تكملة الديباج" في 18 جزء اشتملت على تراجم أئمة المذهب المالكي، ثم جعل لتلك التكملة ذيلا عنونه بـ: "كفاية المحتاج لمعرفة من ليس بالديباج" أو "ذيل الابتهاج بالذيل على الديباج"، وأهم ما امتازت به أعمال أحمد بابا في مجال التراجم عمق النظرة وغزارة المادة مع تجنب الإسفاف أو الاستطراد، وقدرة كبيرة على الترتيب[112].

خاتمة:

ان التواصل الثقافي والحضاري بين بلاد السودان الغربي وشمال افريقيا جاء كانعكاس لازدهار التجارة الصحراوية وما تحمله من طوائف العلماء والفقهاء والقضاة وطلاب العلم، الأمر الذي سمح بتغلغل الحضارة الإسلامية في افريقيا ما وراء الصحراء بكل مقوماتها، فالتفاعل والتواصل والتلاحم بين الأقطار الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى كان عميقا وقويا ظهرت فيه عناصر التأثير والتأثر من الجانبين المغربي والسوداني في جميع ميادين الحياة، فكانت الحركة الثقافية والحضارية في بلاد السودان خلال القرنين 10-11هـ/16-17م انفراجا لثقافة إسلامية راسخة في هذه البلاد منذ ق5هـ/9م، لعب المغاربة دورا كبيرا فيها، رغم تضارب الآراء بين المؤرخين حول حملة أحمد المنصور بين من يعتبرها سبب من أسباب تأخر الثقافة العربية انطلاقا من واقعة علماء تمبكتو، وبين من يقول أن فترة حكم السعديين استمرت فيها الحركة الثقافية في منطقة السودان، الا أننا نحاول دائما أن ننصف العلاقات بين المغاربة والسودانيين على مر العصور، ونبر الأدوار الجبارة التي لعبها العلماء المغاربة في النهضة الفكرية ان صح التعبير في السودان الغربي، والتصدي للكتابات الكولونيا لية التي تحاول تقزيم دور الإسلام والمسلمين المغاربة في المنطقة، واعتبار تاريخها الحضاري يبدأ مع وصول الاستدمار اليها، فادا أخدنا كتب التراجم التي تعرضت للعلماء والفقهاء السودانيين نجدهم يمتازون بمستوى علمي جيد شأنهم في ذلك شأن العلماء المغاربة وهدا ما يلاحظ في الازدهار والتنوع والعمق الثقافي الدي ميز بلاد السودان خلال هاته الفترة.

الهوامش:

[1] محمد بنشريفة: **بين أحمد بابا وأحمد المنصور**، مقال ضمن كتاب المغرب وافريقيا جنوبي الصحراء في بداية العصر الحديث منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995، ص 63.

[2] مطير سعد غيث: **علاقات العرش بالفقهاء والعلماء في السودان الغربي منذ عهد سني علي حتى نهاية الحكم السعدي (869-1070هـ/1464-1660م)**، مقال بمجلة الجامعة المغاربية، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود، الدار البيضاء ع13، 2013، ص302.

[3] محمد رزوق: **دراسات في تاريخ المغرب، مطابع إفريقيا الشرق**، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص 112.

[4] عبد الفتاح مقلد الغنيمي وآخرون: **موسوعة المغرب العربي**، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1994م، ج6، ص 233.

[5] نفسه، ص 243.

[6] محمد الغربي: **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، إشراف نقولا زيادة، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت د ت ص 548.

[7] عبد الفتاح مقلد الغنيمي وآخرون، المرجع السابق، ص 234.

[8] الغربي، المرجع السابق، ص 548.

[9] محمود كعت، **تاريخ الفتاش في أخبار في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، تح و تر، هوداس ودولافوس، مطبعة هوداس، باريس، 1964، ص 180.

[10] نفسه، ص 180.

[11] نفسه، ص 550.

[12] نفسه، ص551.

[13] نفسه، ص 553.

[14] هو عالم مغربي من سوس بنى المسجد في جوار قبره. أنظر: الغربي، المرجع السابق، ص 553.

[15] نفسه، ص ص552-553.

[16] نفسه، ص 554.

[17] نفسه، ص 554. أنظر أيضا: السعدي، المصدر السابق، ص 46.

[18] حسن الصادقي: **جوانب من التواصل الثقافي شمال جنوب**، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، طرابلس، ط1، 1999، ص 265.

[19] الغربي المرجع السابق، ص 555.

[20] نفسه، ص ص555-556.

[21] حسن الصادقي، المقال السابق، ص ص269-270.

[22] عبد الفتاح مقلد الغنيمي وآخرون، المرجع السابق، ص ص 234-235.

[23] يذكر كعت أن الأسكيا داود أول من اتخذ خزائن الكتب ولديه نساخ ينسخون له الكتب. أنظر: كعت، المصدر السابق ص94.

[24] الغربي، المرجع السابق، ص ص 556-557.

[25] نفسه، ص 557.

[26] عز الدين عمر موسى: **دراسات إسلامية غرب إفريقيا**، إصدارات الجمعية التاريخية، الرياض السعودية، ط2، 1999 ص ص125-126.

[27] عبد العلي الودغيري: **اللغة العربية والثقافة الإسلامية بالغرب الأفريقي وملامح من التأثير المغربي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط ط1، 2011، ص33.

[28] الغربي، المرجع السابق، ص ص557-558.

[29] شوقي عطا الله الجمل: **تنبكت وعلاقتها بالمغرب قبل حملة المنصور السعدي وتحت الحكم المغربي**، مقال ضمن كتاب المغرب وافريقيا جنوبي الصحراء في بداية العصر الحديث، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995، ص 55.

[30] عبد الفتاح مقلد الغنيمي وآخرون، المرجع السابق، ص 235.

[31] الغربي، المرجع السابق، ص ص518-519.

[32] عبد القادر آيت الغازي: **نكبة علماء آل أقيت الأبعاد والدلالات**، مقال بمجلة كلية الآداب بني ملال، منشورات جامعة السلطان مولاي سليمان، المملكة المغربية، ع 10، 2009، ص216.

[33] يقول الناصري: "كان بنو أقيت التكروريون من أهل مدينة تمبكتو وممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة الشهيرة ببلاد السودان دينا ودنيا بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا من أهل اليسار والسؤدد والدين لا يبالون بالسلطان فمن دونه، ولما فتح جيش المنصور بلاد السودان أبقاهم الباشا محمود على حالهم إلى أن كانت سنة1593/1002، فكان أهل السودان قد سئموا ملكة المغرب وآنسوا منهم خلاف ما كانوا يعهدونه من سلطانهم الأول، وكانت أدنهم مع ذلك صاغية لآل آقيت فتخوف المنصور منهم، وربما وشى إليه بهم، فكتب إلى عامله محمود بالقبض عليهم وتغريبهم إلى مراكش". أنظر: الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تح جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتب، الدار البيضاء 1955، ج5، ص129.

[34] هو أبو العباس أحمد بابا بن أحمد بن عمر بن محمد بن أقيت بن عمر بن علي بن يحي بن كدالة بن مكي بن نيق بن لف بن يحي بن تشت بن تنفر بن حيران بن النجر بن أبي بكر بن عمر الصنهاجي الماسني السوداني التكروري التمبكتي ولد ونشأ في تمبكتو عام 936هـ/1556م في أسرة من بني أقيت المعروفين بانتسابهم للعلم وتتمتع بالرئاسة والجاه، حلت به محن وشدائد طبعت حياته بعد أواخر العقد الثالث من عمره، على رأس تلك المحن التي طبعت حياته الباقية بطبع الحزن ما يسميه هو" الكائنة العظمى". أنظر: أحمد بابا، المصدر السابق، ص ص13.11.

[35] زيادية، **دراسة عن إفريقية جنوب** الصحراء في مآثر ومؤلفات المسلمين العرب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د ت ص 128.

[36] كعت، المصدر السابق، ص 173.

[37] عبد الرحمن السعدي: **تاريخ السودان**، تح هوداس، المطبعة الأمريكية الشرقية، باريس، 1981، ص 179.

[38] كعت، المصدر السابق، ص 174.

[39] السعدي، المصدر السابق، ص 179.

[40] نفسه، ص 179.

[41] الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 130.

[42] كعت، المصدر السابق، ص 174.

[43] عبد القادر آيت الغازي، المقال السابق، ص 220.

[44] الناصري، المصدر السابق، ج5، ص 130.

[45] سورة القصص، الآية 85.

[46] الناصري، المصدر السابق، ج5، ص ص130-131.

[47] مطير سعد غيث، المقال السابق، ص 303.

[48] كعت، المصدر السابق، ص 182.

[49] الغربي، المرجع السابق، ص ص519-520.

[50] السعدي، المصدر السابق، ص 291.

[51] مطر سعد غيث، المقال السابق، ص 305.

[52] محمد بشريفة، **بين أحمد بابا وأحمد المنصور**، مقال ضمن كتاب المغرب وافريقيا جنوبي الصحراء في بداية العصر الحديث منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط، 1995، ص 65.

[53] نفسه، ص 68.

[54] الغربي، المرجع السابق، ص 520.

[55] محمد بشريفة، المقال السابق، ص 72.

[56] عبد القادر آيت الغازي، المقال السابق، ص ص227-228.

[57] عبد العلي الودغيري، المرجع السابق، ص ص29-30.

[58] نفسه، ص 30.

[59] نفسه، ص ص521-522.

[60] نفسه، ص ص542-543.

[61] زيادية، **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د ت، ص 156.

[62] الغربي، المرجع السابق، ص ص543-544.

[63] زباديه، المرجع السابق، ص 158.

[64] الغربي، المرجع السابق، ص 546.

[65] وفيات قاسم بن سليمان هي عبارة عن نص مختصر في ثمانية عشر صفحة مطبوعة، فيه جرد دقيق بالأيام والشهور والسنوات لوفيات أعيان السودان.غ.، مع ذكر أهم الأحداث للفترة الممتدة ما بين محرم 1160هـ/ يناير1747م، وبداية رمضان 1215هـ/فيفري1801م أي أن هذا النص يبدأ من حيث انتهى كتاب تذكرة النسيان. أنظر: الودغيري، المرجع السابق ص133.

[66] نفسه، المرجع السابق، ص 33.

[67] نفسه، ص 138.

[68] نفسه، ص 34.

[69] عبد الرحمن محمد ميغا: **الحركة الفقهية ورجالها في السودان الغربي من القرن 8 إلى القرن 13 هجري**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، 2011، ص ص51-52.

[70] يعتبر المذهب **المالكي** هو المذهب السائد في السودان، أخذ ينتشر منذ أواسط ق:2هـ/8م في العالم الإسلامي عامة وغربه خاصة واستمر في الانتشار، إلى أن وصل إلى السودان.غ. منتصف ق:5هـ/11م، وتوطدت أركانه ودعائمه فيه وما يؤكد ذلك قول القاضي عياض: "غلب مذهب مالك على الحجاز والمغرب.أ. إلى بلاد من أسلم من السودان"، وأصبحت منطقة السودان هي المنطقة الوحيدة التي استقر بها المذهب المالكي دون أن يزاحمه مذهب آخر. أنظر: عبد الرحمن محمد ميغا المرجع السابق، ص ص31. 34.

[71] الغربي، المرجع السابق، ص 522.

[72] نفسه، ص 522.

[73] أحمد بلعراف التكني: **إزالة الريب والشك والتفريط في ذكر المؤلفين من أهل التكرور والصحراء وأهل شنقيط**، تح و تقد الهادي مبروك الدالي، سلسلة من التاريخ الثقافي المشترك لإفريقيا فيما وراء الصحراء وشمالها، المغرب، د تص، دت ص 55.

[74] زبادية، المرجع السابق، ص 138.

[75] محمد أمين المؤدب، **جوانب من الصلات الثقافية بين المغرب وغرب افريقيا**، مقال ضمن أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي بين الأقطار الإفريقية على جانبي الصحراء، تقديم عبد الحميد الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1 1999، ص ص597-598.

[76] أحمد بابا: **معراج الصعود**، تح و تر، فاطمة الحراق و جون هانويك، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 2000، ص 21.

[77] الغربي، المرجع السابق، ص 523.

[78] البرتلي الولاتي: **فتح الشكور في معرفة أعيان التكرور**، تح، محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي بيروت، ط1، 1981، ص 39.

[79] نفسه، ص 159.

[80] نفسه، ص 139.

[81] الغربي، المرجع السابق، ص 523.

[82] أحمد بابا: **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، تق عبد الحميد عبد الله الهرامة، كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ط1 1989، ص 600

[83] أحمد بابا، المصدر السابق، ص 602.

[84] السعدي، المصدر السابق، ص 112.

[85] البرتلي، المصدر السابق، ص 38.

[86] عبد الرحمن محمد ميغا، المرجع السابق، ص 257.

[87] نفسه، ص 257.

[88] السعدي، المصدر السابق، ص ص219.257.295. أنظر أيضا: البرتلي، المصدر السابق، ص 39.

[89] البرتلي، المصدر السابق، ص 247.

[90] نفسه، ص 242.

[91] نفسه، ص 243.

[92] نفسه، ص 241.

[93] محمد رزوق: **دراسات في تاريخ المغرب، مطابع إفريقيا الشرق**، الدار البيضاء، ط1، 1991، ص ص112-113.

[94] الغربي، المرجع السابق، ص ص528-529.

[95] السعدي، المصدر السابق، ص 303.

[96] الغربي، المرجع السابق، ص ص529-530.

[97] عز الدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 124.

[98] السعدي، المصدر السابق، ص ص1-2.

[99] الغربي، المرجع السابق، ص ص530-531.

[100] الغربي، المرجع السابق، ص531.

[101] زبادية، دراسة عن افريقية جنوب الصحراء، المرجع السابق، ص ص122. 165. أنظر أيضا: الغربي، المرجع السابق، ص 533.531. كعت المصدر السابق، ص ص16.12.11. يحي بوعزيز، تاريخ افريقيا الغربية، المرجع السابق، ج1، ص ص159.114.البرتلي، المصدر السابق، ص 176.

[102] لا يعرف اسم هذا المؤلف، ولا أية معلومة عن حياته، لكن الثابت أنه كان يعيش في تمبكتو وأنه تعلم هناك، وكلفه الباشا أبو بكر بوضع كتاب في تاريخ السودان يكمل به عمل السعدي، وقد فرغ من تأليف كتابه في1164هـ/ 1751، عثر القبطان GADEN عندما قاد حملة ضد ساموري توري على مبيضة الكتاب وسلمها لمحققها ومترجمها هوداس، ثم نشر الكتاب عام 1901 بباريس. انظر: الغربي، المرجع السابق، ص 536.

[103] أحمد بابا، المصدر السابق، ص 173.

[104] الغربي، المرجع السابق، ص 538.

[105] السعدي، المصدر السابق، ص 230.

[106] نفسه، ص 249.

[107] نفسه، ص ص229.287.

[108] نفسه، ص 05.

[109] الغربي، المرجع السابق، ص 539.

[110] زبادية، المرجع السابق، ص 126.

[111] أحمد بابا، المصدر السابق، ص 20.

[112] الغربي، المرجع السابق، ص ص541-542.